

## مجلة إبداع

### مجلة فصلية للأدب والفن

العددان 7 و 8 - صيف وخريف 2008

## رحيل رءوف عباس

### رائد مدرسة التاريخ الإقتصادي والإجتماعي بالعالم العربي

يحيي محمد محمود<sup>1</sup>

فقدت المدرسة التاريخية يوم الخميس 26 يونيو 2008 رائداً من روادها، وعلماً من أعلامها، الأستاذ الدكتور رءوف عباس حامد، رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، وأستاذ التاريخ الحديث بجامعة القاهرة، والذي سبق له وأن درس بالعديد من الجامعات الأجنبية والعربية، من بينها جامعة الإمارات العربية المتحدة، التي عمل بها أستاذاً زائراً لفترة ساهم إبانها في تكوين جيل من المؤرخين الإماراتيين.

ولد في 24 أغسطس عام 1939م بمدينة بورسعيد، وعلى شواطئها وتحت شمسها بدأ خطواته الأولى في الحياة، حيث ألحقه والده بإحدى المدارس الدينية لتحفيظ القرآن الكريم (الكتاب) لأنه توسم فيه النبل والإيمان، ولكن الأمور لم تسر كما شاء الأب، فقد شكلت اللحظات الأولى في الكتاب حياته العلمية، إذ بدأت بعلاقة ساخنة، عندما سأله الشيخ ما إسمك؟ وأجاب الفتى بكل أدب ووقار "رءوف عباس"، فما كان من الشيخ الجليل إلا أن انهال عليه ضرباً بعضاً بينما كان الفتى في حيرة من أمره عن سبب هذا الضرب، وأخيراً سأله الشيخ هل تعرف لماذا أضربك؟ فقال الفتى: لا، فقال له الشيخ لأن الرءوف هو الله، أما أنت فأسمك عبد الرءوف عباس.

<sup>1</sup> أستاذ جامعي مصري

وقد نتج عن هذا الموقف فى الدقيقة الأولى لدخول الفتى للكتّاب فقدان للثقة فى الشيخ وتعليمه، فلم يستطع حفظ شئ مما يطلبه منه المطوع، ولم يستطع التساوي بأقرانه، فما كان من المطوع إلا أن استدعى والده يشتكى له ابنه الضعيف، وخرج الأب من الكتّاب مكتئباً حزيناً يصحب طفله المهذب الذى لا يستطيع حفظ دروسه، والتقى أحد أصدقائه، وسأله لماذا أنت حزين يا عباس أفندى؟ أجابه قائلاً إن الشيخ يشكو من عدم قدرة الطفل على الحفظ رغم أنه نبيل ومهذب، فسأل الصديق الطفل: لماذا لا تستطيع حفظ ما يطلبه منك الشيخ؟ فأجاب الطفل لأنني لا أفهم ما يقوله، فهو لا يشرح لنا المعانى، ولكنه يطلب منا الحفظ فقط، هنا كانت نصيحة الصديق للأب بأن يلحقه بالمدرسة الحكومية، وكانت المشكلة أن من يدخل المدرسة الحكومية يلزمه كارت توصية لمدير المدرسة من بك أو باشا، فقد كان مدير المدرسة (بيك)، ولابد من كارت من شخص يساويه فى الرتبة أو أعلى منه، هنا وعد الصديق بحل المشكلة والحصول للأب على كارت من الباشا الذى يعمل معه، وهنا التحق الفتى النبيل بالمدرسة الإبتدائية بتوصية من باشا لا يعرفه، ولكن هذا الباشا أسدى للمدرسة التاريخية أعظم خدمة، فقد وضع الفتى على طريق التعليم الصحيح.

وعندما دخل الفتى المدرسة الحكومية وبدأ المعلم ينادى أسماء الأطفال ونادى رءوف عباس أكثر من عشرين مرة، لم يجبه الفتى، وأخذ المعلم يراجع كشف الأسماء مرات ومرات فيجد الاسم وأمامه توصية من الباشا، لذلك لم يعاقبه بقسوة المطوع، ولكنه ذهب له يعنفه لأنه لم يرد علي اسمه، وقال له الفتى أن اسمه عبد الرؤوف عباس، ولكن المعلم أخبره أن اسمه رءوف عباس، وشعر الفتى باستعادة شخصيته وكيانه فى المدرسة الحكومية الرسمية فانطلق يتعلم، وتعددت المدارس التى تنتقل بينها فى المحافظات المختلفة مع تنقل والده فى وظيفته، حتى التحق بكلية الآداب جامعة عين شمس وحصل على درجة الليسانس فى مايو 1961.

عين بعد ذلك بإحدى شركات النسيج بكفر الدوار، ولكنه استمر بدراسته العليا بجامعة عين شمس حتى حصل على درجة الماجستير بدراسة رائدة فى التاريخ الإجتماعى، موضوعها: "الحركة العمالية فى مصر (1899 - 1952)"، تحت إشراف أحد أساتذة جيل الرواد المرحوم أحمد عزت عبد الكريم، ورغم صعوبة العمل بكفر الزيات مع الدراسة بجامعة عين شمس إلا أنه واصل طريقه حتى أعلنت كلية الآداب جامعة القاهرة عن وظيفة معيد، والتى

تقدم لها رغم تحذيرات البعض له بأن الإعلان أعد خصيصاً لآخر، وأن مدرسة جامعة القاهرة لا تفتح أبوابها لأبناء مدرسة عين شمس، ولكن صاحبنا الذى درج على التحديات منذ صغره لم يتردد فى التقدم بأوراقه، وطالب بحقه فى التعيين فى الوظيفة التى كان بها جديراً، حتى عين فيها عام 1967.

ورغم عمله بجامعة القاهرة إلا أنه واصل دراسة الدكتوراه بجامعة عين شمس فى موضوع "النظام الاجتماعى فى مصر فى ظل الملكيات الزراعية الكبيرة (1837 - 1914)" مخالفاً بذلك أصولاً واهية كانت موجودة بين الجامعات المصرية فى تلك الفترة، وبعد أن حصل رءوف عباس على الدكتوراه عين مدرساً للتاريخ الحديث فى يونيو عام 1971، وواصل مشواره العلمى فرقى لدرجة أستاذ مساعد فى ديسمبر 1977، فأستاذاً فى عام 1981، والتى ظل يشغلها حتى عام 1999 حيث عين أستاذاً متفرغاً بجامعة القاهرة.

شغل عدة مناصب علمية رفيعة، منها رئاسة مجلس قسم التاريخ بجامعة القاهرة لست سنوات متتالية (1982 - 1988)، استطاع خلالها أن يعيد بناء القسم الذى كان يعانى من ندرة فى أعضاء الهيئة التدريسية، فعين العديد من النابهين بالقسم، وأسس مدرسة علمية من المهتمين بدراسة التاريخ الإقتصادى والاجتماعى، وقد عين وكيلاً لكلية الآداب جامعة القاهرة لشؤون الدراسات العليا والبحوث فى الفترة من 1996 وحتى 1999، ورئيساً للجنة العلمية لدار الكتب والوثائق القومية، ووحدة الدراسات التاريخية بمركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام، وعضواً بلجنة التاريخ بالمجلس الأعلى للثقافة لفترة ليست بالقصيرة، ثم انتخب رئيساً للجمعية المصرية للدراسات التاريخية منذ 1999 وحتى وافته المنية.

تميز النشاط الأكاديمى لأستاذنا بالتنوع داخل مصر وخارجها، حيث عمل أستاذاً زائراً بجامعة الإمارات العربية المتحدة، وقطر، وطوكيو، والسوربون (باريس)، وكييل، واسن، وهامبورج، وفرايبورج (ألمانيا)، وستاننفورد وجورجيا بأمریکا، ثم الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

كرمته الدولة عدة مرات، فحصل على وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى من الرئيس فى فبراير عام 1983، وحصل على جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية عام 2000. كما حظى رءوف عباس بتكريم جهات علمية غربية رفيعة المستوى، حيث اختير كضيف

شرف في المؤتمر الدولي السنوي لجمعية دراسات الشرق الأوسط بأمريكا الشمالية MESA في نوفمبر 1990، وجاء ترتيبه الرابع بعد برنارد لويس، جاك بيرك، ألبرت حوراني.

وتعددت مؤلفات ودراسات الدكتور رءوف عباس، منها: "الحركة العمالية في مصر"، القاهرة، 1968؛ "النظام الاجتماعي في مصر في ظل الملكيات الزراعية الكبيرة" القاهرة، 1973؛ "مذكرات محمد فريد"، المجلد الأول، دراسة وتحقيق، القاهرة، 1975؛ "الحركة العمالية المصرية في ضوء الوثائق البريطانية (1924 - 1937)"، القاهرة، 1977؛ "المجتمع الياباني في عصر مايجي"، القاهرة، 1980؛ "جماعة النهضة القومية"، القاهرة، 1985؛ "السياسة الأمريكية والعرب"، بيروت، 1982؛ "هنري كورييل والحركة الشيوعية المصرية"، القاهرة، 1988؛ "جامعة القاهرة ماضيها وحاضرها"، القاهرة، 1989؛ "كبار الملاك والفلاحين في مصر (1937 - 1952)" القاهرة، 1999 (بالاشتراك مع أ.د. عاصم الدسوقي)؛ "شخصيات مصرية في عيون أمريكية"، القاهرة 2001؛ "ثورة يوليو بعد نصف قرن"، القاهرة 2003؛ "مشيناها خطى"، سيرة ذاتية، القاهرة، 2004.

كذلك نظم العديد من الندوات والمؤتمرات والتي اهتم بنشر أعمالها، منها: "مصر وعالم البحر الأبيض المتوسط"، القاهرة، 1986؛ "العرب في أفريقيا، الجذور التاريخية والواقع المعاصر"، دار الثقافة العربية، القاهرة، 1989؛ "تاريخ مصر الإقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني"، القاهرة، 1991؛ "إصلاح أم تحديث؟ مصر في عهد محمد علي باشا"، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، 1999؛ "وثائق مصر في القرن العشرين"، مجلدان، القاهرة، 2004؛ "تراث طه حسين، المقالات السياسية"، خمسة مجلدات، القاهرة 2002 - 2004؛ "خمسون عاماً على ثورة يوليو، بحوث الندوة الدولية"، القاهرة، 2002؛ "الجامعة المصرية والمجتمع، مائة عام من النضال الجامعي"، القاهرة، 2008.

وأشرف على العديد من المشاريع البحثية بهيئات علمية مختلفة، من أهمها: مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام، الذي نفذ من خلال وحدة الدراسات التاريخية به العديد من الدراسات المهمة، منها: "مصر للمصريين، مائة عام على الثورة العربية"، القاهرة، 1981؛ "أربعون عاماً على ثورة يوليو، دراسة تاريخية"، مركز الأهرام للدراسات الإستراتيجية، القاهرة، 1992؛ "العلاقات المصرية البريطانية (1951 - 1954)"، مركز الدراسات

السياسة والإستراتيجية بالأهرام، القاهرة، 1995؛ "الأحزاب المصرية (1922 - 1953)"، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام، القاهرة، 1995؛ "حرب السويس بعد أربعين عاماً"، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام، القاهرة، 1997، نشرها المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000.

كذلك كان لرؤوف عباس إسهامات مهمة فى الترجمة، فترجم كتاب م. هاتشيا "يوميات هيروشيما"، القاهرة، 1977، حيث تضمن شهادة شاهد عيان على ضحايا القنبلة النووية من واقع يوميات طبيب بمستشفى هيروشيما؛ كما ترجم كتاب موريس دوب: "دراسات فى تطور الرأسمالية"، القاهرة، 1978؛ وكتاب: ألكسندر شولس "مصر للمصريين"، القاهر، 1983؛ وترجم لشارل عيسوي كتاب "الهلال الخصيب، تاريخ وثائقى"، بيروت، 1989؛ وكتابى بيتر جران "الجذور الإسلامية للرأسمالية"، القاهرة، 1992؛ و"ما بعد المركزية الأوروبية"، القاهرة، 1998، مراجعة وإشراف؛ ولنلى حنا كتابى "تجار القاهرة فى العصر العثمانى، سيرة أبو طاقية شاهبندر التجار"، القاهرة، 1997؛ و "ثقافة الطبقة الوسطى فى مصر فى العصر العثمانى"؛ وفي الفترة الأخيرة ترجم العديد من الأعمال الهامة، وهى: رونالد ستورس: "توجهات بريطانية شرقية، مذكرات السير رونالد ستورس"، القاهرة 2005؛ دونالد ريد: "فراعنة من؟ علم الآثار والمتاحف فى مصر القرن التاسع عشر"، القاهرة 2005؛ أندريه ريمون: "الحرفيون والتجار فى القاهرة فى القرن الثامن عشر" (مراجعة الترجمة)، القاهرة 2005؛ روجر أوين لورد كرومر، "الإمبريالي والحاكم الاستعماري"، القاهرة 2006؛ بول كيندى، "برلمان الإنسان، الأمم المتحدة الماضى - الحاضر - المستقبل" (تحت الطبع).

ولم تتوقف كتاباته التاريخية على الكتابة باللغة العربية، ولكنها امتدت للغة الإنجليزية حيث نشرت له مؤلفات وبحوث عدة باليابان وألمانيا وإنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية بلغ عددها 13 عملاً، ومن أهم هذه المؤلفات: "The Japanese and Egyptian Landlords and peasants, a study in social, و Enlightenment, Tokyo, 1990" "development of modern Egypt, from 1837 to 1952 Syrakuze, 2002".

أما عن البحوث التى أجراها باللغة العربية، فقد تنوعت موضوعاتها ما بين تاريخ العرب السياسى والإجتماعي والإقتصادي وتاريخ الشرق الأقصى ولاسيما اليابان، حيث حظيت

التجربة اليابانية بدراسات عدة لفقيدنا، من أهم هذه الدراسات: "سوريا فى مخططات السياسة البريطانية" 1943 - 1944 "مجلة دراسات تاريخية، دمشق، يناير، 1982؛ "الفكر السياسى العربى قبل الحرب العالمية الأولى"، مجلة الفكر العربى، بيروت، مجلد 28، يوليو 1982؛ "ملاحظات منهجية حول كتابة تاريخ مصر"، مجلة فكر، العدد 6، يونيو، 1985؛ "الإخوان المسلمون والإنجليز"، مجلة فكر، العدد 8، ديسمبر 1985؛ "الجذور التاريخية للحركة الإسلامية"، مجلة المنار العدد 31، يوليو، 1987؛ "قDOM الغرب: بداية للنهضة أم إجهاض لها؟"، المنار، العدد 33، سبتمبر، 1987؛ "العلاقات المصرية الإيطالية فى الحرب العالمية الثانية"، ضمن مصر وعالم البحر الأبيض المتوسط، القاهرة، 1989؛ "الحوار الوطنى فى الثقافة المصرية"، مجلد 40، 1999.

## وظيفة التاريخ عند رءوف عباس

كان الدكتور رءوف عباس يرى أن التاريخ علم يهتم بدراسة حركة المجتمع، فيرصد التغيرات الكمية فى البنية الإقتصادية وما يترتب عليها من تغيرات كيفية تؤثر فى البنى الإجتماعية والسياسية والأنساق الفكرية والثقافية، وبعبارة أخرى يعالج التاريخ المجتمع باعتباره كائناً عضوياً يتغير من حال إلى حال نتيجة لعوامل موضوعية.

وكان رءوف عباس يرى أننا لا يمكن أن نتصور طبيباً لا يعرف شيئاً فى الكيمياء أو الفيزياء، لذلك لا يمكننا أن نتصور مؤرخاً لا يعرف الإقتصاد والإجتماع وسيولوجيا المعرفة، والسياسة، والتذوق الفنى، وعلم الجمال، فبدونها لا يمكن للمرء أن يكون مؤرخاً، لأنه يفقد القدرة على تحليل الأرضية التى يركز عليها أى مجتمع من المجتمعات، ولا يستطيع أن يضع يده على عوامل الحركة والسكون فيه، ولا يقدر على فهم حركة التغير التاريخية وتفسيرها، ذلك التفسير الذى غلب على الدراسات العديدة لفقيدنا وما أشرف عليه من دراسات وبحوث.

لقد رحل رءوف عباس لدار الخلود ولكنه ترك مدرسة من المؤرخين تمتد بطول العالم العربى من الخليج للمحيط، ومازال آخر أعماله فى المطبعة، لكى يثبت أن رحلة العطاء ممتدة حتى اللحظات الأخيرة، رحم الله رءوف عباس وأسكنه فسيح جناته، وجزاه عن طلابه وأعماله خير الجزاء.